الإنسان بين التقدم العلمي والتقهقر الأخلاقي

جميلة حنيفي
أستاذة مساعدة
قسم الفلسفة·جامعة الجزائر

ملخص:
إن الثورة العلمية والتقنية غيرت حياة الإنسان وجعلتها أكثر سهولة ويسرا بفضل الإبداعات والتطبيقات

التقنية المبتكرة، ولكنها بالمقابل أفرزت مجتمعا يعاني تدهور القيم الأخلاقية والاجتماعية. وما الأحداث التي يشهدها عصرنا إلا خير دليل على ذلك، من همجية علمية في الحروب بقنابلها الذرية وأسلحتها البكتيريولوجية والصراعات الناشبة هنا وهناك في العالم.هذا يعني أن الإنسانية لم تحقق رقيها وسعادتها التي طالما ناشدتها إنها إنسانية مليئة بالمآسي . لأجل ما سبق تبقى الإشكالية: هل يمكن التقدم العلمي والتقني أن يحقق تقدما أخلاقيا واجتماعيا مماثلا له؟ الإشكالية الأبدية التي حيرت الإنسان وما تزال.

***Résumé* :**
Le progrès scientifique et technique a changé la vie de l'homme. Il a amélioré la condition humaine grâce aux multiples inventions et applications techniques qui ont améliorés les conditions économiques et sociales. D'autres parts, le programme scientifique a engendré une société qui souffre d'une décadence des valeurs morales, et les événements de notre temps en sont la preuve, la barbarie scientifique de la guerre avec ces bombes atomiques et bactériologiques et les conflits qui s'allument un peu par tout dans le monde. Cela veut dire que l'humanité n'a pas atteint son bonheur qu'elle a tant espéré. C'est une humanité pleine de malheurs. Voila pourquoi la problématique : es-ce que le progrès scientifique peut réaliser le progrès moral et social? reste l'éternelle problématique qui inquiète l'homme à travers le temps.

التقدم العلمي والتقني وتأثيراتهما:

ليس ثمة شك بأن الانقلاب العلمي والتطبيقات التقنية التي رافقته قد غيرا حياة الإنسان تغييرا عميقا وواسعا انعكست آثاره على مناحي الحياة المتنوعة والمختلفة سواء الاقتصادية منها أو الاجتماعية أو السياسية. لقد تغير موقف الإنسان من الطبيعة من موقف المتفرج والمستكين والخاضع، وهو موقف ناجم عن الإيمان الساذج بالأساطير والخرافات إلى موقف المغامرة والتحدي.

لقد خاض الإنسان عالم المغامرة والتحدي حينما حول اهتمامه من المسائل الميتافيزيقية الغامضة والشائكة إلى الظواهر الطبيعية المتميزة بالتغير والتنوع –وليس المقصود هنا الانصراف عن تناول هذه المسائل ذلك أنها جزء لا يتجزأ من كيان الإنسان–. وبدأ جني الثمار المنهجية للثورة العلمية مع إثبات فكرة مركزية الشمس للكون* ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بفضل نيكولا كوبرنيك (Nicolas Copernic (1473–1543). ويعتبر هذا العمل خطوة عملاقة في سبيل التحرر من ربقة النموذج المعرفي المدرسي المتسم بالتأمل والثبات.

وازدادت الثورة العلمية تجذرا على تركيز الاهتمام في الطبيعة كحقل للبحث والتجربة خاصة مع غاليلي (Galilée (1564–1642) مؤسس المنهج التجريبي الرياضي في الفيزياء الذي تجاوز به المنطق الأرسطي.

وبفضل الاعتماد على المنهج العلمي أصبح ينظر إلى الطبيعة على أنها ذات بنية رياضية إنشائية، ولما كانت كذلك فإنها مثل الآلهة التي تسهل ملاحظة حركاتها وصياغة القوانين المتحكمة في سيرها صياغة رياضية. ويعد فرانسيس بيكون (Francis Bacon (1561–1626) وروني ديكارت René Descartes (1596–1650)) في طليعة الفلاسفة الذين نقدوا منظومة العلوم المدرسية سواء في مضمونها أو منهجها، وأعادوا بناء صرح العلوم باقتراح تصنيف جديد لها وكذلك منهج جديد.

رفع بيكون شعار: "المعرفة قوة"، ودعا إلى إعادة النظر في مكانة الفلسفة الطبيعية التي تعتبر وفقه مهملة مقارنة بالتيولوجيا وفلسفة الأخلاق. ورأى أن إحراز التقدم في

*–تاريخيا ليس كوبرنيكوس أول من أبدع هذه النظرية بل سبقه إليها أرستاخوس الساموسي، وهو فلكي يوناني عاش في 200 ق.م.

العلوم يقتضي الاهتمام بالعلوم التطبيقية من فلك وبصريات وموسيقى وميكانيكيا وطب، فهي علوم متخصصة كفيلة بتغيير مستوى حياة الإنسان فكريا وماديا. وبدلا من استعمال المنطق الأرسطي الأكثر صلاحية لتأكيد الأخطاء وإثباتها والذي ضرره أكثر من نفعه** اقترح بيكون منهجا جديدا تتكون حلقاته الأساسية من الملاحظة والتجربة أي ما يسمى مفتاح التفسير. وهو كما ذكره في كتاب الأورغانون الجديد مؤلف من ثلاث قواعد هي: الحضور والغياب والمقارنة.

كذلك دعا ديكارت إلى إعادة النظر في معارف عصره وبنائها من جديد وذلك بإنشاء نسق فلسفي جديد نموذجه الرياضيات، ذلك العلم الرباط الموحد أو ما يسمى الرياضيات الكلية التي تجعل "البشر سادة على الطبيعة ومالكين لها". وتتجلى عظة ديكارت في كونه قد حرر العقل الإنساني من الخضوع لسلطة رجال الدين وقدم بلغة بسيطة المنهجية الضرورية التي تمكنها من كشف أسرار الطبيعة والسيادة عليها. وبفضل اكتشاف المناهج العلمية الجديدة أصبح الإنسان يتعامل مع الظواهر الطبيعية والسيادة عليها. وبفضل اكتشاف المناهج العلمية الجديدة أصبح الإنسان يتعامل مع الظواهر الطبيعية تعاملا جديدا ميزته الفاعلية والابتكار فسيطر على الطبيعة وكشف أسرارها وتحدى جبروتها بالتجهيزات التقنية الهائلة واستغل مواردها استغلالا ماهرا يحفظ بقاؤه ويخدم أغراضه. وبالفعل شكل المنهج العلمي الوسيلة الوحيدة لكشف حقائق الوجود والولوج إلى أسراره.

هذا ولقد كانت الحاجة إلى التفاعل بين المعطيات العلمية والأساليب التقنية والعملية في الصناعة جد ملحة وضرورة حيوية لتجسيد قدرة الإنسان على تسخير قوى الطبيعة وتطويعها واستغلال ثرواتها استغلالا سريعا وناجعا في آن واحد.

هكذا ما كان مجرد حلم يراود الذهان وينشط المخيلة أصبح واقعا ملموسا. وفجأة ضعف الإيمان بتحقيق التقدم الكامل وغير المحدود وغدت كل المعضلات قابلة

**-أنظر: Francis Bacon,<u>Novum Organum</u>

وللإشارة فقد استفاد بيكون من قراءاته تلسيوس (1588-1509) أحد المدرسين الإيطاليين. كما تأثر بروجر بيكون (1294-1214) الذي أدرك أهمية التجربة كمعيار حاسم للتثبت من النتائج المحصل عليها بالاستدلال القياسي. وللإشارة أيضا لقد استفاد روجر بيكون بدوره من إطلاعه على الحضارة العربية في الأندلس.

للحل إذا ما أخضعت للتفسير العلمي إخضاعا تاما. وحمل لواء هذا الاعتقاد العلماني المتفائل فلاسفة الأنوار في القرن الثامن عشر الذين تنبئوا وكلهم ثقة وحماس بأن تحقيق الكمال الإنساني أمر حتمي بمجرد الاحتكام إلى معطيات العلم. فإذا كان العالم آلة نيوتونية خاضعة لقوانين غير مستعصية عن الفهم والتفسير العلمي فإن الإنسان قطعة من هذه الآلة الكبيرة خاضعة للحتمية ذاتها وللضرورة النيوتونية ذاتها. كما رأوا أن التقدم العلمي الحاصل في ميدان التجارة والمواصلات سوف يزيل الحدود الإقليمية بين الدول ويحقق حالة التقارب والتبادل بين الشعوب ويجذر الوعي بالحرية أكثر فأكثر لدى الأفراد ويرقى المؤسسات الديمقراطية.

كما من شأنه أن يحقق لرفاه المادي للكل ويرفع مستوى معيشة جميع أفراد المجتمع. وهذا فونتنال (1657–1757 Fontenelle) يعبر عن ذلك بقوله: "أي شعور بالفوز؟ وأي رجاء سار في كلمة التقدم وحدها؟ إنها تجلب هذا الفخر الذي لا يمكن العيش من دونه وهذه الآفاق حول المستقبل التي بدلا من أن تناقض الحاضر تكمله وتزينه هانحن في قرن سوف يصبح أكثر تنويرا يوما بعد يوم لا تكون كل القرون السالفة مقارنة به سوى ظلمات".[1] أما كوندورسيه (1743– 1794 Condorcet) فقد وضع ثقته المطلقة في إمكان تحقيق الكمال البشري بفضل تقدم العلوم وزوال الخرافات وكل أشكال الدوغماتية الظلامية، واعتقد أنه كلما تقدمت المعرفة البشرية كلما تزايدت السعادة والفضيلة لدى البشر.

بروز المفارقات:

لقد اظهر التطور السريع للأحداث أن فكرة التقدم الإنساني المنادى بها في عصر التنوير كانت فكرة تفاؤلية مبالغا فيها إذ سرعان ما برزت المفارقات الحادة بين نبوءة الأنوار بالعصر الذهبي وواقعية الأحداث الاجتماعية كما تبدت في مستهل القرن التاسع عشر الذي يعتبر قرن الفشل الاجتماعي للمنجزات العلمية وللاعتقاد التنويري الزاعم أن التقدم العلمي والتقني كفيلان حتما بحل معضلات البشرية. ومن بين ل رواد الأنوار انفرد روسو (1712–1778 J.J.Rousseau) بفضل جرأته الكبيرة وحسه المرهف بالتنبيه إلى وجوب الحذر من هذا التقدم الحضاري السريع

1 – Fontenelle، in Mucchielli Roger، Logique et Morale، (Bordas éditeur، 1959)، p29.

الخطى في مقاله الشهير «خطاب حول العلوم والفنون»، الذي كتبه في إطار مسابقة أعدتها أكاديمية ديجون عام 1749 حول موضوع: هل أدى تقدم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أم إلى إصلاحها؟ حيث بين أن التقدم العلمي يمكن أن يسبب تدنيا في السلوك إذا لم يقترن بتقدم في معرفة الطبيعة البشرية وفي هذا الصدد يقول: «إنه لمنظر عظيم وجميل أن ترى الإنسان متحررا بصورة ما من العدم بجهوده الخاصة، مزيلا بفضل أنوار العقل الظلمات التي غلفته فيها الطبيعة، مرتفعا فوق ذاته ذاتها، منطلقا عن طريق الفكر الصحيح إلى مناطق علوية، متخطيا بخطوات عملاقة شأنه شأن الشمس الامتداد الواسع للكون، وما هو أكبر بكثير وأصعب بكثير هو الانكباب على الذات لدراسة الإنسان ومعرفة طبيعته، رغباته وغايته»[2]. ولم يكن روسو يقصد إدانة العلوم والفنون في حد ذاتها بل قصده أن يوجه نقدا لمختلف مظاهر الفساد الأخلاقي والانحراف عن حالة الطيبة الأصلية في الإنسان. وتكمن السعادة الحقيقية لديه في إحلال علاقات التعاطف والأخوة والتحاب بين الناس أي الابتعاد عن صنمية العقل وعجرفته والاقتراب أكثر فأكثر من الطبيعة الإنسانية الخيرة.

ولقد عبر الشاعر الانجليزي شارل ديكينز -Charles Dickens (1812 1870) عن هذه المفارقات تعبيرا رمزيا جميلا ومتناقضا أيضا حينما قال واصفا القرن التاسع عشر:

«إنه أفضل الأوقات، إنه أسوأ الأوقات

إنه عصر العبادة، إنه عصر الجنون

إنه عهد الإيمان، إنه عهد الجحود

إنه فصل النور، إنه فصل الظلام

إنه ربيع الأمل، إنه خريف اليأس»[3]

---

2 - Rousseau Jean Jacques, Sur les sciences et les arts, 2ème édition, (Canada : les éditions le Griffon d'Argile, 1993), p09.

3 - Dickens Charles, in The 20th century, edited by: Briggs Asa, (London: Thams et Hudson, 1970), p40.

إن هذه المفارقات في عمق البنية الاجتماعية الليبرالية بينت بقوة مدى هشاشة إن لم نقل سذاجة الأفكار التفاؤلية التي دعا إليها فلاسفة الأنوار اعتقادا منهم أن تحقيق الكمال الإنساني أمر حتمي ومضمون لا محالة بمجرد الاحتكام إلى معطيات العقل أو إلى نتائج العلم التجريبي كمعيار للموضوعية يمكن من خلاله الحصول على مجتمع ذي بنية عقلية منسجمة ومتماسكة، لكن في المقابل برهن الواقع الاجتماعي الفعلي بكل ما يتضمنه من مظاهر القسوة والظلم والبؤس والألم الفشل الذر يع لأفكار الفلاسفة الحالمة بتحقيق المساواة والحرية والتقدم. ولم تكن دعوة شوبنهاور (1788-1860)A. Schopenhauer إلى اللجوء إلى الفن وإيجاد العزاء فيه سوى إدانة لما آلت إليه الأوضاع ويتساءل ممتعضا ومتهكما: من أين استخرج دانني عناصر جحيمه إن لم يكن من العالم الواقعي ذاته***.

أصبحت هذه المبادئ مجرد عبارات لغوية فارغة من المعنى ولقيت بذلك حركة التنوير انتقادات ومعارضة قوية خاصة من قبل الفلاسفة المثاليين الألمان كالفيلسوف ايمانويل كانت (1804-1724) Emmanuel Kant الذي حاول عادة النظر في العقل من خلال إجراء عملية فحص ونقد لاستجلاء حدوده الممكنة. ففي نقد العقل الخالص بين كانت أن موضوعات المعرفة الوحيدة التي يمكن الإنسان معرفتها هي الظواهر القابلة للملاحظة التجريبية، وإنه ليس بالإمكان الوصول إلى معرفة الأشياء في ذاتها وأية محاولة لتجاوز التجربة الحسية سوف تتنج عنها نقائض لا محالة.

كما لقيت حركة التنوير معارضة من مذهب التقوى الألماني -الذي أسسه فيليب جاكوب سبنر (1705-1635) Jacob Spener وهي حركة بروتستانتية تركز على فكرة التجربة الشعورية الباطنية للفرد في مقابل العقل وتعتبر ممارسة التقوى عماد الدين. هذا إلى جانب نقد التيار الرومانسي****المجافي للعقل والنظام.

***-أنظر:

Schopenhauer Arthur, Le monde comme Volonté et comme Représentation.

****-التيار الرومانسي: تيار أدبي وفني عقب نهاية القرن الثامن عشر في ألمانيا وإنجلترا ثم امتد إلى فرنسا وإيطاليا. من رواده جان جاك روسو ووليام بلاك وغوته وشيلر. من خصائص هذا التيار العودة إلى الطبيعة وإيلاء الشعور والخيال المبدع القيمة والأهمية، ومن ثم جاء رفض عقلانية التنوير ونقدها.

إنه لمن السذاجة تحميل العلم والتقنية مسؤولية ما يعانيه المجتمع من متعب اجتماعية وأخلاقية فالعلم مكسب إنساني حصلت البشرية بفضله على خدمات عدة سهلت معيشتها ونظمت حياتها وأكدت وجود الإنسان بصفته كائنا كرمه الله وميزه بالعقل.

وليس العلم والتقنية عاملين قائمين بذاتيهما بل يوجدان ضمن جملة أخرى من العوامل تتكون من فلسفات وديانات ونظم وعادات صلبة وتقاليد جامدة قامت ورسخت قبل ظهور العلم.وهي العوامل نفسها التي أشاعت النظرة العدوانية للعلم والتقنية رغم أنهما وسيلتان قويتان وقادرتان على تشكيل عادات وغايات جدد. ولكن لم يتم استثمار ثمرات استغلال قوى الطبيعة من أجل خدمة الأغراض الديمقراطية ومبادئ الحرية والمساواة والنفع العام بل استخدمت في زيادة سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان. وبذلك أضحى العلم سلاحا إنسانيا خطيرا حول الحضارة الصناعية إلى مجرد حضارة مالية ونقدية لا تحركها سو الإرادة العمياء في الكسب الفردي وجني الثروات الطائلة، حضارة أهم سمة فيها التناقض الصارخ بين الغايات المرجوة والنتائج التي تولدت بسبب عدم الانتفاع انتفاعا لائقا وإيجابيا بالخيرات التي جعلها المنهج العلمي الحديث ممكنة.

مما لامراء فيه أن العلم قدم للإنسان بفضل المنهج العلمي خدمات جليلة وإمكانات جديدة كانت وما تزال مدعاة للاعتزاز والافتخار بقدرة العقل البشري على الإبداع وإخضاع الطبيعة إخضاعا منظما وسريعا من أجل الاستجابة لمتطلبات الحياة المتزايدة باستمرار وبشكل سريع إلا أن الإنسان أخفق في جعل المنهج العلمي أداة لترقية حضارة إنسانية ديمقراطية فعلية، وانجرت عن هذا الإخفاق مظاهر الفقر المدقع والحرمان والظلم الاجتماعي، مما أدى إلى استعباد الدول الأوروبية لشعوب أخرى من قارات أخرى. وهكذا فإن «ثقافات عديدة لن تدرك من العبقرية العقلانية غير عجرفتها وكفايتها وفظاظتها قبل أن تضمحل غالبا بالحديد والدم والنار».[4]

ولم تكن فكرة لم الشمل البشري تحت لواء العلم بصفته نوعا من دين المستقبل إلا بمجرد وهم كاذب «وليس أدل على ذلك من الحربين العالميتين الأولى والثانية التي «كانت صدمة قوية لعهد التفاؤل الذي سبق قيامها لما غلب على الناس فيه

---

4 – إينياشيو رامونيه، «الغرب والمعرفة المفتتة»، في الفكر العربي المعاصر، العدد 46، (لبنان: مركز الإنماء القومي، 1987)، ص102.

من الاعتقاد بأن العالم يسير سيرا مطردا نحو حسن التفاهم بين الشعوب والطبقات، ومن ثم فهو سير أكيد نحو انسجام وسلام».[5]

وكانت الصدمة أقوى عندما تبين للناس فشل الديمقراطية الليبرالية في تجسيد قيم الحرية والمساواة إذ وقعت الأولى ضحية الأنظمة الشمولية، التي تسلب الأفراد حرياتهم وتفرض سلطانها على أفكارهم وتحولت الثانية إلى ظلم اجتماعي وتفاوت طبقي صارخ نجمت عنه تجزئة المجتمع إلى طبقتين، طبقة رجال الأعمال وطبقة الفقراء التي تعيش في مستوى متدن إما بسبب البطالة أو الأجور الزهيدة. وهكذا أفضى التقدم العلمي والتقني إلى خيبة الأمل، إذ سرعان ما تحولت الشعارات العظيمة الداعية إلى السلام والديمقراطية والرفاه المادي للكل إلى مجرد أصوات جوفاء.

ولقد حملت مدرسة فرانكفورت معول النقد الجذري الصارم للمظاهر السياسية والاجتماعية والثقافية للمجتمع الصناعي المتقدم، وذلك بزعزعة الأساس الذي شيدت عليه ألا وهو العقلانية الأداتية التي ارتبطت بفكرة السيطرة على الطبيعة وعلى الإنسان في الآن ذاته، ولم تلبث هذه السيطرة أن استحالت إلى استلاب أو اغتراب وتشيؤ. ولقد بين هاربرت ماركوز (1898-1979) Herbert Marcuse أحد أقطاب المدرسة أن العقل التكنولوجي ما يزال مرتبطا ارتباطا وثيقا بالعقل ما قبل التكنولوجي. ويتجلى هذا الارتباط في استمرار السيطرة التاريخية للإنسان على أخيه الإنسان مع تغير في شكل السيطرة ومبادئها، ففي القديم خضع العيد لسيطرة السيد، بينما يخضع الإنسان حاليا لما يسميه ماركوز «نظام الأشياء الموضوعي». ولقد «كان في الإمكان أن تكون قوة التكنولوجية، قوة محررة عن طريق تحويل الأشياء إلى أدوات ولكنها أصبحت عقبة في وجه التحرر عن طريق تحويل البشر إلى أدوات»[6]. بعدها يتخذ الاستلاب -وفق ماركوز- طابعا إشكاليا يتجلى من خلال توحد الأفراد مع الوجود المفروض عليهم «فالناس يتعرفون على أنفسهم في بضائعهم ويجدون جوهر روحهم في سيارتهم وجهازهم التلفزيوني الدقيق الاستقبال وفي بيتهم الأنيق وأدوات طبخهم الحديثة»[7]. وهكذا بدلا من أن تحقق التقنية هدفها الأصيل المتمثل

---

5 -جون ديوي، تجديد في الفلسفة، تر:أمين مرسي قنديل وزكي نجيب محمود، (القاهرة: مكتبة الأنجلومصرية)، ص10.

6 - هربرت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، تر:جورج طرابيشي، ط3، (بيروت: منشورات دار الآداب، 1988)، ص191.

7 - المرجع نفسه، ص45.

في تحرير الإنسان انحرفت عن هدفها في ظل الرأسمالية وولدت إنسانا مسلوب الإرادة ذي بعد واحد استعاض عن الحرية بوهم الحرية.

وما يحدث في مطلع القرن الواحد والعشرين ليس إلا تتمة أو استكمالا للانحدار الأخلاقي للحضارة المصنعة حيث برزت إلى العيان مشاكل عديدة ذات طبيعة أخرى ربما أكثر تعقيدا مما زاد الحياة البشرية تجردا من القيم الإنسانية.

وأكثر هذه المشاكل إلحاحا في الطرح تلك التي تنضوي تحت ما يسمى أخلاق الحياة وهو ميدان يعني بالبحث في التطبيقات الجينية من تلقيح اصطناعي واستنساخ وموت رحيم وغيرها. ولقد واجهت فلسفة الأخلاق تساؤلات من طراز خاص مثل: هل من الأخلاق غرس جنين حدد جنسه مسبقا؟ وهل يمكن استنساخ الخلايا البشرية؟ أي إنتاج الكائن البشري ذاته على عدة نماذج؟إلى جانب هذا توجد الانحرافات الجنسية التي يراد منحها الشرعية باسم المساواة بين البشر والحق في السعادة، بعدما كانت تمارس في نطاق ضيق وبصورة سرية ومحتشمة بعيدا عن الأعين والآذان.

إضافة إلى هذا فإن التقنين الاجتماعي الشديد ولد علاقات اجتماعية مفككة وأفرادا أرهقهم الضجيج والضوضاء والقلق، فمنهم من انجرف وراء التيار، ومنهم من وجد ملاذا في الانخراط في طوائف دينية شتى خاصة البوذية بل حتى الشيطانية هروبا من الواقع الذي لم يعد يلبي حاجة أرواحهم الظمأى إلى السكينة والهدوء. هذا ولقد كشفت الحروب والنزاعات الناشبة في بقع شتى من العالم تضاؤل قيمة الإنسان الذي يخوض حروبا أجبر عليها أحيانا دون أن يعلم أسبابها البعيدة أو حتى يفهمها لأن خوضها يدخل ضمن باب تلبية نداء الواجب أو الوطن حتى ولو كان هذا الأخير متعديا على أوطان أخرى سالبا أراضيها وثرواتها.

وليس المقصود من هذا أن العلم هو الذي أدى إلى نشوب الحروب والنزاعات فهذه الأخيرة وجدت مع وجود الإنسان على هذه البسيطة، كل ما هنالك أن دخول العلم في الحياة الإنسانية كان له أثر هدام، فهو لم يقض على همجية الإنسان بل زودها بما يضاعف قوتها أكثر ويضعف عنصر التسامح فيها.

إلى جانب هذا هناك ظاهرة العولمة التي تكرس نموذجا حضاريا واحدا تجعله مهيمنا على جميع الأصعدة سواء السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية. إلى جانب

الاعتراف بما يسمى واجب التدخل السياسي أو العسكري في الشؤون الداخلية للدول وذلك بحجة ترقية القيم الديمقراطية. ومما يؤسف له أن القيم الديمقراطية النبيلة من حرية ومساواة وعدالة أصبحت وسيلة لتبرير استعباد الشعوب بحجة محاربة بقايا الدكتاتوريات المستبدة وتأسيس نظام ديمقراطي بديل. والحقيقة إن الديمقراطية يجب أن تكون مطلبا ملحا تسعى إليه الشعوب ذاتها لاكتسابه وتجتهد في ذلك ولا يمكن أبدا فرضها من الخارج بقنابل النابالم أو الغازات الخانقة أو الأسلحة البكتيرولوجية أو القنابل الذرية. هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإن «الاعتقاد بان المساواة الديمقراطية تؤدي بالوعي الخلقي إلى الانتشار في المجتمع عامة فقد ناهضه تدني مستوى الثقافة وتحديد مقاييسها وأنماطها وازدياد قابلية الجماهير للتأثير بوسائل التلاعب بتفكيرها»[8].

كانت نتائج العقلانية العلمية والتقنية فضيعة تدعو إلى المرارة واليأس من مصر الإنسان على هذه الأرض. وقد قال الشاعر الفرنسي بول فاليري في هذا الصدد: «نحن نعرف الآن أن حضارتنا فانية، فقد سمعنا كلاما عن عوالم زالت بكاملها وعن إمبراطوريات انهارت بجميع رجالها وعتادها، وسقطت في غور الزمان المتعذر كشفه، مع آلهتها وقوانينها وأكاديمياتها وقواميسها...إننا نرى الآن أن هاوية التاريخ كبيرة بما يكفي الجميع. ونشعر أن للحضارة هشاشة الحياة ذاتها»[9].

أما بشأننا نحن المجتمعات العربية الإسلامية فإننا نعاني أزمة مضاعفة لأننا تعثرنا عن جني ثمار المسيرة العلمية والفلسفية التي غرسها أجدادنا الأوائل والكشف عما تخبؤه من إمكانات إبداعية كمونية –وذلك لأسباب يطول شرحها وليس المقام مناسبا للخوض فيها– فلم نحقق تقدما علميا وتقنيا مماثلا لذلك الذي حققه الغرب. إننا في وضع متخلف، استوردنا مظاهر الحداثة الغربية باختراعاتها التقنية وبأشكالها السياسية والتربوية والقانونية والاقتصادية في حين جوهر الحداثة، هو الوعي بإرادة الإنسان في حريته وتحقيق ذاته ومكافحته لكل أشكال الطغيان والهيمنة وهي القيم التي نبتت على ترابها الحضارة الغربية، فلم نعاينه إلا بصفة

---

8 – تشارلز فرنكل، أزمة الإنسان الحديث، تر:نقولا زيادة، (بيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، 1959)، ص48.

9 – بول فاليري، نقلا عن: إينياشيو رامونيه، مرجع سبق ذكره، ص103.

محتشمة في فترة النهضة العربية ولكن سرعان ما خبت جذوته وتراجع حماسه ولم نقطف ثماره كما أراد رواده.

وإذا كان الفكر الأوروبي يطرح إشكالية الوضع ما بعد الحداثي عبر مساءلة مفاهيم التنوير والعقلانية والتقدم ونقدها فنحن ما نزال في الوضع ما قبل الحداثي. إننا نعاني تخلفا في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية زيادة على هذا فنحن نعاني انحطاطا في القيم، فلم نتمكن من قيمنا الأصيلة والسامية واستوردنا القيم الغربية ورمنا تطبيقها دون تحضير الأرضية السياسية والاجتماعية اللازمة لذلك، ناهيك عن الأرضية الذهنية في مجتمعات تعاني من تفشي الأمية بأشكالها.

صفوة القول إن العلم والتقنية مهما بلغا حدا هائلا ومعجزا من التقدم فإنهما لا يتضمنان قيمة مطلقة في ذاتهما لنهما يبقيان مجرد وسيلة لترقية المثل الأخلاقية العليا التي ما فتئ الإنسان ينشدها. وهنا تزداد حاجة البشرية إلى الحكماء والمصلحين والفلاسفة لينيروا لها الدروب المظلمة ويوجهونها نحو الصواب والأفضل، وذلك بالعمل على ترقية البحث في الشؤون الإنسانية الأخلاقية.

وفي هذا المضمار لابد للفلسفة من أن تضطلع بدورها على أكمل وجه. وإذ نتحدث عن الفلسفة فنحن نقصد الفلسفة التي تؤكد الجانب الروحي والأخلاقي وتمنح الإنسان بعده الإنساني وتقربه من ماهيته الحقيقية بصفته كائنا مميزا عن الكائنات الأخرى. والفلسفة كما يقول إميل برييه: «احتجاج مستمر للعقل ضد الاستغراق في العادات المادية الجامدة التي تؤدي إليها الصناعة»[10].وهذا يتطلب التخلي عن الخطاب العدمي الذي أفرغ الإنسانية من معناها ومن قيمها الأصلية وقطع تواصلها الحميم مع كل ما هو روحي إذ حول الإنسان ذاته إلى إله جديد يصنع قيما على مقياسه الخاص. كما يجب تجنب تأثير الخطاب العلماني المتطرف الذي اتخذ من العلم دينا جديدا يقدم له كل طقوس التقدير والولاء.

---

10 – إميل برييه، اتجاهات الفلسفة المعاصرة، تر: محمود قاسم، (بيروت: دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، 1956)، ص22.